

مركز تكامل للدراسات والابحاث

دراسات محكمة

التاريخ بين الجدوى والموضوع وآليات الاشتغال

الطيب بياض

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

عين الشق الدار البيضاء

All rights  
reserved



جميع الحقوق  
محفوظة

مركز تكامل للدراسات و الأبحاث  
TAKAMUL centre for Interdisciplinary Research and Studies



لا يمكن أن نجادل في عبر التاريخ وما يمكن أن يقدمه من دروس، لكن وظيفته ليست في تقديم الموعدة من خلال تنبيه الخلف إلى مزالق السلف ومهالكه، بل في تقديم أجوبة على قضايا مجتمعية، باعتباره علما انسانيا واجتماعيا له أدوات وآليات اشتغاله الكفيلة بتقديم عناصر إجابة وفهم لما يعتصر العصر من تعقيدات.

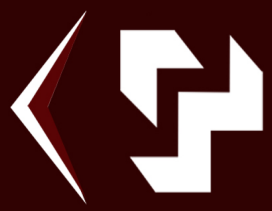
يعيش العالم اليوم على وقع جائحة كورونا وتداعيتها، ويحبس أنفاسه تطلعا للخلاص. ترنو العيون إلى تريقا تجود به مراكز البحث يقي شر الوباء، وتشرئب الأعناق إلى انبعاث الدخان الأبيض من أسطح إحدى المختبرات مُبشرا بلقاح يخلص من هذا البلاء. لكن هل على المؤرخ أن ينتظر نهاية هذا المخاض ليخص الموتى بطقوس جنائزية على مقاسه، تعوضهم بعضا من الدفن المغبون الذي انتهوا إليه بدون تشييع ولا وداع أحبة؟ وهل من واجبه، من باب الانضباط لقواعد صناعته، ألا يخوض في بنية لم تكتمل صيرورتها بعد لتتيح له التقاط حدث مؤشر على ذلك، يسعفه في التأريخ وربما التحقيق؟ أم هي فرصته لكي لا يبقى حبيس الكتابة عن الأموات، ويقدم للأحياء ما يجعل صناعته معبرة فعلا عن طلب اجتماعي ومستجيبة لحاجة مجتمعية، صنعة موضوعها الإنسان وليس الماضي<sup>1</sup>؟

يقدم مارك بلوك درسا بليغا في هذا الشأن من خلال تجربته مع الحرب العالمية الثانية<sup>2</sup>، ويمدنا فرانسوا فوريه بنماذج تطبيقية على تفاعل المؤرخ مع قضايا عصره الملحة والآنية طيلة أربعين سنة من خلال إطلاقاته التحليلية في مجلتي فرانس أويسرفاتور والنوفيل أويسرفاتور<sup>3</sup>. ربما هنا العبر الحقيقية التي تجعل مؤرخ اليوم الذي درج على وصف التحولات الكبرى والمحطات التاريخية الشائكة دون أن يعيشها، أمام امتحان حقيقي ليكون شاهدا وفاعلا وارتفاعا مع محطة مفصلية أصابت الناس بالفزع والهلع والجزع، لذلك يراهنون على حكمة المؤرخ

<sup>1</sup> Marc Bloch, *Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien*, édition critique préparée par Etienne Bloch, Armand Colin, Paris, 1993, pp. 81-83

<sup>2</sup> Marc Bloch, *L'étrange défaite, témoignage écrit en 1940*, Gallimard, Paris, 1990.

<sup>3</sup> François Furet, *Un itinéraire intellectuel, L'historien journaliste, de France-Observateur au nouvel Observateur (1958-1997)*, édition établie et préfacée par Mona Ozouf, Calmann-Lévy, Paris, 1999, p. 7.



التي تجعله قادرا بكل هدوء على استحضار البنية الممتدة في الزمن الطويل لسبر أغوار القوى العميقة المفسرة لما تحبل به الظرفية من التباس وغموض.

## - ما جدوى التاريخ؟

اختار باتريك بوشرون أن ي دشّن دخوله لكوليج دو فرانس بدرس افتتاحي يوم 17 دجنبر 2015 تحت عنوان نعتقد أنه منتقى بعناية: "ما يستطيعه التاريخ". فهو يعي جيدا قيمة المنصب ورمزية المكان، ودلالة عنوان الدرس الافتتاحي في مؤسسة تترى على عرش المعمار الجامعي الفرنسي. كما يستحضر ولا شك رهانات الحقل المعرفي الذي ينتهي، إليه بالقياس إلى ما راكمه الرواد إنتاجا وتدافعا مع باقي فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، من أجل الريادة والقيادة في مختلف المواقع. وقد كان حريصا على جعل المؤرخ في قلب الحدث، جاهزا لتقديم عناصر تفسير لما استجد من وقائع وأحداث مرتبطة بمتغيرات العصر، كيف لا وهو الذي كان عليه أن ينفعل وجدانيا كأبي مواطن مع مُصَاب جلل هَزَّ بلاده، ويتفاعل علميا مع نفس الحدث في سخونته كمؤرخ؛ مفتتحا محاضرتة بالقول: "عدت بعد شهر إلى ساحة الجمهورية. كنت مثل الآخرين، ومع السواد الأعظم منهم، حزينا وغير مصدق لما وقع<sup>4</sup>. كانت شمس نونبر تلقي بأشعة تكاد تكون وقحة بلا مبالاتها المتعالية على أحزان الناس. فمنذ يناير 2015، أصبح الزمن يمر على الحجر الأبيض، الذي يشكل أساس تمثال ماريان، كأنه موجة عاتية تتكسر على الجرف. كان الزمن ينساب، ومعه الليالي والأيام، والأمطار والرياح تبلبل رسوم الأطفال وتجعل ألوانها شاحبة، تبعثر الأشياء، وتمحو الشعارات، فتخفف من غضبها. كنا نسرّ إلى أنفسنا: هذا التمثال المعلمة الذي يرفع عاليا في السماء ذاكرة نشيطة، حية وهشة، وكنا نقول ليست المدينة سوى هذا، أي هذه الطريقة التي تجعل الماضي قابلا للسكن وللحضور بيننا، حيث تجمع تحت خطوات أقدامنا شظايا المبعثرة. والتاريخ هو كل هذه الأشياء متى عرف كيف يستضيف من نفس الجهة الوتائر البطيئة للديمومة وفُجاءة الأحداث"<sup>5</sup>.

<sup>4</sup>- يشير المحاضر إلى العمليات الانتحارية التي عرفتها باريس في 13 نونبر 2015 مخلفة عددا كبيرا من القتلى، وتلتها وقفات الإدانة والاحتجاج في ساحة الجمهورية وسط باريس.

<sup>5</sup>- باتريك بوشرون، ما يستطيعه التاريخ، ترجمة جلال الحكماوي، الدار البيضاء، 2018، ص 9-10.





كان بوشرون المؤرخ كما المواطن يقع تحت تأثير الضربات الانتحارية التي هزت باريس ومعها الرأي العام الفرنسي قبل حوالي شهر من تقديم هذه المحاضرة، لذلك عندما بادر بطرح السؤال أين يكمن الخطر؟ ما انفك يرحل في الزمن ذهابا وإيابا بين الحاضر والماضي، باحثا أحيانا على متوازيات بينهما، لتقديم عناصر إجابة عن ما يشغل بال معاصريه، مستلهما أحد أهم إشراقات مارك بلوك في منافحته المنهجية دفاعا عن التاريخ<sup>6</sup>.

استهل هذا المؤرخ الفذ (مارك بلوك) كتابه الموسوم بـ "دفاعا عن التاريخ أو صنعة المؤرخ" بسؤال أكثر عمقا وربما استفزازا للذات وماهية اشتغالها، ما جدوى التاريخ؟ وقدم الاستفهام على لسان طفل صغير موجه لأب مؤرخ، بصيغة واضحة لا لبس فيها: "هلا شرحت لي يا أبت إذن ما جدوى التاريخ؟"<sup>7</sup>. قد يكون السؤال مباغتا فلا تسعف سرعة البديهة في إرواء الظمأ، وقد تعوق القدرة التواصلية إيصال المعنى بشكل مبسط ينسجم وسنّ السائل، لكن على المؤرخ في كلتا الحالتين أن يجعل من هذا الاستفزاز المنتج نقيشة مطالب بفك رموزها أو تميمة ملازمة له، لا لطرده النحس، بل لإذكاء سؤال أعمق وأبعد يتعلق بشرعية التاريخ، فمسألة الاستطاعة أو العجز (ما يستطيعه التاريخ) تبدو ثانوية، أو على الأقل لاحقة تتقدمها وتعلو عليها مسألة شرعية الوجود وماهيته وغايته. ذلك هو الانشغال المعرفي والقلق الفكري الذي لازم مارك بلوك في عز الحرب العالمية الثانية والذي حرص على التجنيد فيها رغم كل مبررات الإعفاء، فما إن انتهى الضابط/ المؤرخ بلوك من كتابة شهادته/وصيته لعموم القراء عن الهزيمة الغربية،<sup>8</sup> حتى انبرى لكتابة ما يحصن به حرفة أولئك الذين جرى نعتهم بـ "قبيلة المؤرخين". والتحصين هنا مزدوج؛ من اساءة الذات لفهم قواعد حرفتها، ومن تطاول المتريصين بها المحتقرين لها في شكلها الوضعاني التقليدي. لذلك جاءت الصيغة الأولى للعنوان الفرعي للكتاب على شكل سؤال مزدوج: "كيف ولماذا يشتغل المؤرخ"<sup>9</sup>. فوضع من خلال هذا الكتاب/ المرافعة خارطة طريق لعمل علمي ومجدد، ونصب في الوقت نفسه متاريس صِدِّ أمام النزوعات الهيمنية للسوسيولوجيا الدوركايمية. إذ مثلما صاغ الخليل بن أحمد الفراهيدي علم

<sup>6</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., pp. 89-98.

<sup>7</sup> Ibid., P. 69.

<sup>8</sup> Marc Bloch, *L'étrange défaite*, op.cit.

<sup>9</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p. 7.



العروض على إيقاع نغمات علم الموسيقى الذي برع فيه خارج أسطورة طقطقات مطارق الصفارين على الطسوت، دُوْرَنَ مارك بلوك أوتار التاريخ على ميزان الإنسان ومقام الإشكال بعيدا عن أصنام الحدث والفرد والأصول. فتوجهاته التجديدية تغذت من تطور الفكر العلمي سواء في العلوم الرياضية أو الفيزيائية أو الطب التجريبي،<sup>10</sup> وهو الذي لم يوفر علما من العلوم المسماة صحيحة أو دقيقة (رياضيات، علوم طبيعة، علوم الحياة، الإحصاء، الفيزياء...) إلا واستدعاه لخدمة قضيته المركزية. يتعلق الأمر بتميز وعلمية الحقل المعرفي الذي يعتز بالانتماء إليه. ودون مركب نقص تجاه أي من هذه التخصصات العلمية يعلن: "أن وحدها العلوم التي تفلح في تأسيس روابط شارحة بين الظواهر، تستحق أن تسمى علوم صحيحة"<sup>11</sup>. ووحده التاريخ بين سائر فروع العلوم الانسانية والاجتماعية، وفي علاقته معها، يمكن أن يكون شيئا مقابلا للرياضيات في علاقتها بباقي العلوم المسماة صحيحة؛ فمثلا لا يمكن لدراسي الفيزياء أو الإحصاء أو المحاسبة أو الهندسة الاستغناء عن الرياضيات في مجالات أبحاثهم، يستحيل على علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة فهم مواضيعهم دون الرجوع بشكل أو بآخر للتاريخ. لذلك ما على التاريخ إن أراد أن يحجز له مكانا بين العلوم إلا أن يقترح ترتيبا عقلانيا ومعقولة متقدمة، بدل الاقتصاد على تقديم إحصاء بسيط. فمارك بلوك لا يرى من مهام التاريخ الكشف عن القوانين الخاطئة، لاستحالة الأمر بفعل تواتر المصادفات، لكن لا يتصوره صالحا كحقل معرفي إلا وهو مشبع بالعقلانية والوضوح وكل ما يدرك بالعقل، الأمر الذي يجعل علميته مستمدة من مقارنة المؤرخ ومنهجه وليس من طبيعة موضوعه. وفي مسيره نحو ما يدرك بالعقل لا بالحواس يحتل التاريخ مكانة أصيلة بين تخصصات المعرفة الإنسانية، مثل أغلب العلوم وربما تفوق عليها بفعل الزمن، الذي يشكل جزء لا يتجزأ من موضوعه، إذ هو "علم متحرك"، وليحافظ على علميته عليه عدم الكف عن الحركة والتقدم، مثلما على المؤرخ أن لا يكون كائنا جالسا فيتحول إلى بيروقراطي التاريخ، بل حرفته تقتضي منه المسير الدائم نحو واجبه في البحث والمغامرة<sup>12</sup>.

<sup>10</sup> فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 58-59.

<sup>11</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p. 16.

<sup>12</sup> Ibid.



عندما يثير مارك بلوك سؤال "شرعية التاريخ" منذ الصفحة الأولى من كتابه، فالإشكال الاستيمولوجي للتاريخ يتجاوز عنده المستوى المعرفي والعلمي، ليأخذ لبوس المواطنة ووازع الأخلاق. فعلى عاتق المؤرخ تقع مسؤوليات ينبغي القيام بها، وهو في ذلك لا يختلف عن أي حرفي يُفترض فيه الإخلاص لواجبات صناعته، بضمير مهني<sup>13</sup>. ولأجل ذلك ينبغي تصحيح المسار، وتنقية الشوائب، وكسر جرة النمطي، وإعادة توجيه البوصلة، بما ينسجم وجدوى التاريخ وشرعيته وقواعد حرفته. لذلك اقترح ما يجوز اعتباره خارطة طريق لحنطة المؤرخين، يمكن تكثيف عناصرها فيما يلي:

## - موضوع التاريخ:

"نقول أحيانا: التاريخ علم الماضي، يا له من كلام سيء، وإنه لأمر سخيف أن يكون الماضي في حد ذاته موضوعا للعلم".<sup>14</sup> هكذا يُهشم مارك بلوك الجرة فوق رؤوس الإخباريين ورواة السير ومحنطي التاريخ. ثم سرعان ما ينتقل من هدم القديم إلى بناء الجديد، وفي رسمه لمعالم الممكن بدل القائم يستحضر اجتهادات السلف المجدد في جعل الإنسان موضوعا للتاريخ وغايته في الآن نفسه، "في الواقع تعلمنا منذ زمن طويل، من خلال شيوخنا العظماء من أمثال ميشلي وفوستيل دو كولانج أن ندرك أن موضوع التاريخ بطبيعته هو الإنسان"،<sup>15</sup> أو لمزيد من الدقة "يجب إضافة الإنسان في الزمن"<sup>16</sup>. فالزمن بطبيعته مستمر، لكنه دائم التغيير أيضا، ومن تناقض هذين الميسمين الذين يسمانه، تنشأ الإشكاليات الكبرى للبحث التاريخي<sup>17</sup>. فالمؤرخ شديد الالتصاق بالزمن، لا يخرج منه أبدا، تقوده مراوحة ضرورية إلى أن يصيخ السمع أحيانا للموجات الكبرى للظواهر المرئية العابرة في الزمن من

<sup>13</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op.cit., pp. 12-13.

<sup>14</sup> Ibid., p. 81.

<sup>15</sup> Ibid., p. 83.

<sup>16</sup> Ibid., p. 84.

<sup>17</sup> Ibid., p. 85.



جانبا إلى آخر، والقبض أحيانا على اللحظة الإنسانية حيث يجري تكثيف هذه التيارات في العقدة القوية للوعي<sup>18</sup>. فيصير التاريخ بذلك علما للإنسان في الزمن المستمر والممتد لكن أيضا المتغير؛ أي علم التغيرات والتبدلات في أحوال الناس وطباعهم وذهنياتهم بل وحتى أجسادهم<sup>19</sup>. وعلى المؤرخ أن يعي أن صنعته في بعدها الفني والعلمي تتطلب حرفية عالية، فلغتها الجميلة تجعلها فنا مشتمى، وصرامتها المنهجية ترقى بها لمصاف العلم المبتغى.

## - المؤرخ والوثيقة:

يقتفي المؤرخ الأثر ويبحث عن السر ويطمح إلى التفسير، لكن يفسر ماذا؟ ويفسر بماذا؟ هل يفسر الوقائع والأحداث؟ أم يفسر مضامين المادة لفهم ما جرى؟ والمادة هنا قد تكون نقيشة أو لُقى أثرية أو رواية مكتوبة أو شفوية، هي في نهاية المطاف شواهد على المؤرخ أن يبرع في اقتناص شواهده أولا، وألا يطمئن إليها ثانيا، وهو وحده المؤهل لتحديد قيمتها ومنحها الحياة وشرعية الوجود في مختبره، بعد جسها وفحصها والاطمئنان إلى مصداقيتها. وواهم في نظره من يعتقد أن الوثيقة تقول، فهي تُستنطق وتُقول لكي تبوح بالأسرار والخفايا. والمؤرخ النبیه هو الذي يتوسل عُدّة منهجية وتكويننا عابرا للحقول المعرفية ليقدم دور المحقق الذي في العلاقة مع وثائقه، وإلا صار هو في خدمة هذه الوثائق، يعيد تركيب التاريخ حسب الأهواء الواردة فيها. فأكثر النصوص والوثائق الأثرية وضوحا وإرضاء، لا تتحدث إلا عندما نعرف كيف نستنتجها<sup>20</sup>. وسيكون من غير المجدي تصور أن كل إشكالية تاريخية، تتطلب في تحليلها نوعا خاصا وفريدا من الوثائق. إذا كلما طمح البحث التاريخي للوصول إلى أعماق الحقائق، كلما تلمس إدراكها تحت الأشعة المتقاطعة للشواهد المتنوعة في طبيعتها<sup>21</sup>.

## - مركزية النقد التاريخي:

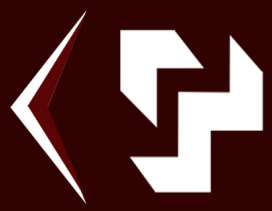
يدرك أكثر المحققين من رجال الشرطة سذاجة أنه من غير المعقول الاطمئنان إلى أقوال الشهود، كما جرى

<sup>18</sup> Ibid., pp.166-167.

<sup>19</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.24.

<sup>20</sup> Ibid, p.109.

<sup>21</sup> Ibid., p.111.



منذ القدم رفض القبول الأعمى للشواهد التاريخية. فقد أثبتت التجارب القديمة للإنسانية، أن النصوص تُرد إلى غير أصولها، وليست كل الروايات صحيحة، فيما الآثار المادية يمكن تزويرها. لذلك فعلمية التاريخ ارتبطت بثورة الشك في المسلمات واليقينيات.

حصل التقدم الحقيقي في اليوم الذي لعب فيه الشك دور الفاحص، حيث جرى وضع القواعد الموضوعية التي ميزت بشكل تدريجي بين الكذب والحقيقة، وأرست أسس الفرز والانتقاء.<sup>22</sup> جرى ذلك على مراحل منذ مطلع القرن السابع عشر، إذ انطلق مع دانيال باينبروك، ثم تعمق تدريجياً مع كل من جون مايلون وريتشارد سيمون. وهو جيل مؤسس لفتح التاريخ بالنقد، والذي تعزز بعمل سبينوزا "رسالة في اللاهوت والسياسة" و"خطاب في المنهج" لديكارت.<sup>23</sup>

يبقى على المؤرخ إذن أن يتقن دور قاضي تحقيق غاضب من بعض الأدلة التمهيدية، حيث يُسهّل غياب الحذر فرض الصور المشينة، وهو يدرك بعيداً عن السذاجة أن شهوده يمكنهم أن يخادعوا أو يكذبوا. لكن ينشغل قبل كل شيء بجعلهم يتحدثون، لكي يفهمهم.<sup>24</sup> فالملاحظة والشك والسعي للفهم والتفسير، والمقابلة بين الشواهد والنفاذ للمسكوت عنه فيها بنقَس نقدي، وقوة استشعار حادة تميز بين المحتمل وغير القابل للاحتمال، كلها مداخل تُؤمّن للتاريخ مكاناً محترماً بين العلوم.

## - المؤرخ والقاضي:

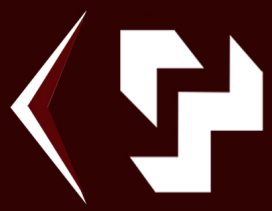
يقول بول ريكور: "وماذا بأمر المواجهة بين مهمة القاضي ومهمة المؤرخ؟ إن ظروف النطق بالحكم داخل محكمة قد فتحت، كما رأينا، ثغرة في الجبهة المشتركة التي يحتفظ بها المؤرخ في وجه الخطأ والظلم. على القاضي أن يقضي إنها وظيفته. عليه أن ينهي. عليه أن يَبُتَّ (...) كل هذا لا يقوم به المؤرخ، ولا يستطيع أن يقوم به، ولا يرغب في أن يقوم به، وإن حاول وجازف بأن ينصّب نفسه وحده محكمة للتاريخ، فإن ذلك سيكون على حساب

<sup>22</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.120.

<sup>23</sup> Ibid., p.122.

<sup>24</sup> Ibid., p.126.





الاعتراف بالطابع المؤقت لحكم يعترف بتحيّزه، بل حتى بطابعه النضالي. لكن عندها فإن حكمه الجسور يخضع لنقد جماعة العاملين بكتابة التاريخ، ولنقد الجمهور المستنير، وسيكون مُصنّفه عرضة لسيرورة لا تنتهي من المراجعات تجعل من كتابة التاريخ إعادة كتابة مستديمة. هذا الانفتاح على إعادة الكتابة هو علامة الاختلاف بين حكم تاريخي مؤقت وبين حكم قضائي نهائي".<sup>25</sup> ذلك ما سبق أن نبه إليه مارك بلوك بشكل أكثر صرامة، قبل أزيد من نصف قرن، إذ يرى جاك لوغوف في تقديمه لكتاب بلوك عن صنعة المؤرخ أن رفيق درب لوسيان فيفر في تأسيس مجلة الحوليات، كان يمقت المؤرخين الذين يصدرن الأحكام عوض أن يعمدوا إلى الفهم، وهو الحريص على ترسيخ أقدام مهنتهم بشكل أعمق في الحقيقة والأخلاق، إذ الحقيقة غاية علم التاريخ والأخلاق منتهاه.<sup>26</sup> ألم يكن المنصب الذي شغله جول ميشلي في كوليج دو فرانس بين 1838 و1851 هو كرسي التاريخ والأخلاق؟

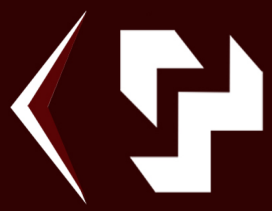
## - المنزع الإشكالي للتاريخ:

سبق لفرانسوا سيميان منذ سنة 1903 أن هاجم النمط السائد في المعرفة التاريخية الموسوم بالوضعاني، إذ "دعا المؤرخين ليتخلصوا من بهرجهم ليجددوا أنفسهم، واعتمد الصورة المجازية لبايكون عن «أصنام قبيلة المؤرخين»، وعددها ثلاثة، وكلها غير مفيدة. هناك أولا «الصنم السياسي»، أي الدراسة المهيمنة، أو على الأقل الاهتمام الدائم بالتاريخ السياسي، يضاف إليه «الصنم الفردي أو العادة الراسخة في فهم التاريخ كتاريخ للأفراد»، وأخيرا «صنم التسلسل التاريخي، أي عادة الضياع في البحث عن الأصول». وهو بذلك يضع موضع الشك وبصورة واضحة قدرة هذا العلم القديم القائم الذي هو التاريخ، أن يتشكل كطريقة ايجابية للمعرفة. وعلى العكس من ذلك فعلم الاجتماع الناشئ يقترح نفسه أن يكون «مدونة للعلوم الاجتماعية». إنه يدعو المؤرخين إلى العبور من المفرد إلى الظاهرة المنتظمة وإلى العلاقات الثابتة التي تسمح باستنباط قوانين علمية ومنظومات سببية"<sup>27</sup>.

<sup>25</sup> بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009، ص 478-477.

<sup>26</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.28.

<sup>27</sup> فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، مرجع سابق، ص 49.



هذا الاستفزاز المنتج الذي جرى تخصيصه في مجلة التوليف التاريخي لصاحبها هنري بير، ساعد مارك بلوك ولوسيان فيفر على هَدِّ المعبد على رؤوس حراسه من الوضعانيين، قبل أن يحين موعد تصفية الحساب مع المُستصغرين لصنعة المؤرخين في بُعدها الإشكالي. فكان سر نجاح ثنائي جامعة ستراسبورغ، ومعهما تجربة الحوليات، واكتساح مفهومهما الجديد للتاريخ نابع، كما نبه إلى ذلك جاك لوغوف، من أمرين: نحتما لمفهوم جديد للتاريخ قائم على أساس إشكالي ومنفتح على باقي الحقول المعرفية، ثم من مدة صلاحية هذا المفهوم الذي أحكم مارك بلوك إتقانه في كتابه/ المرافعة عن التاريخ. فإلى حدود اليوم، وبعد مرور ما يقرب من الثمانين حَوْلًا، مازال طرح مارك بلوك يحتفظ بهيقه وجدته، وإن كان قد أخذ سره معه عن فهمه لموقف المؤرخ اتجاه المستقبل، فقد ترك هذا الإشكال في عهدة المؤرخين وعلى عاتقهم.<sup>28</sup> "إن المؤرخ بالنسبة إلى مارك بلوك ولوسيان فيفر لا يستطيع أن يكتفي بالكتابة تحت إملاء الوثائق، عليه أن يسائلها ويضعها ضمن إشكالية. إنهما يقترحان ضد التاريخ - الرواية الذي ينادي به لانغوا وسينيوبوس تاريخا- مشكلا، يكون أرضية نظرية لمفهومية تاريخ بنيوي مستقبلي. لم يعد التقسيم التاريخي يتمفصل إذا وفق حقبات كلاسيكية ولكن وفق مشكلات يتم إبرازها والبحث عن حلول لها"<sup>29</sup>.

لقد كان جاك لوغوف شديد الوضوح في جوابه عن سؤال لبرنار بيفو، في برنامج الثقافي الشهير أبسطروف، حول التاريخ الجديد، بالقول: "التاريخ الجديد هو تاريخ إشكالي"<sup>30</sup>.

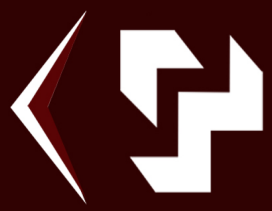
- تفاعل المؤرخ مع أزمة كورونا:

يذكرنا فرانسوا بداريدا بأنه "في مواجهة توقعات المجتمع واهتمام الجمهور يُطلب من المؤرخ أن يفك اشتباك الأحداث، وأن يوفر خيطا هادياً، بالمزج بين دوره كناقد والدور المدني الأخلاقي. وحتى حين لا يتعلق الأمر

<sup>28</sup> Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.31.

<sup>29</sup> فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، مرجع سابق، ص 118.

<sup>30</sup> Hervé Coutau- Bégarie, *Le phénomène nouvelle Histoire, grandeur et décadence de l'école des annales*, Ed, economica, Paris, 1989, P.32.



بمحاولة إعداد وتقديم المؤرخ، عبر الاحتكام لخبرته الكبيرة، بصفته حكيم البلدة المعترف به، فعلياً أن نشدد على اعتلاء المنبر استجابة لقضايا العصر- المشروط بالالتزام الصارم بقواعد البحث العلمي – هو أمر مشروع تماماً من حيث أنه يمد التاريخ بعمق كبير<sup>31</sup>. قبل أن ينبه إلى "انفجار المعرفة التاريخية الذي يحدث عقب اتساع مجال المؤرخ إلى مجالات جديدة لم تكتشف حتى الآن، ومهما كان من حسن اطلاع المؤرخ على العالم حوله، فهو يخطو على صراط ضيق يسير بين المهمتين المتعارضتين المطلوب منه إنجازهما. إن عليه من ناحية أن ينأى بنفسه عن الأساطير الكامنة في العقل العادي، وأن يتعد عن تشوهات الذاكرة الجماعية، حتى يتسنى له وضعها إلى جانب خطاب يخلو من الغموض، يكون مؤيداً بالبراهين وعقلانياً في "في نفس الوقت". ومن ناحية أخرى فبوصف المؤرخ بانياً وناشراً للمعرفة، عليه أن يساهم في صوغ الضمير التاريخي وذاكرة معاصريه، بعبارة أخرى، إن كونه فاعلاً اجتماعياً لا يفصله عن كونه باحثاً".<sup>32</sup>

يدفعنا اتساع مجال المؤرخ إلى مجالات جديدة لم تكتشف حتى الآن، إلى طرح جملة أفكار حول مدى تدخله وتفاعله مع قضية عصره الحالية المتمثلة في جائحة كورونا وما أفرزته من تداعيات، وعن آليات اشتغاله الكفيلة بجعله ليس فقط في صلب انشغالات مجتمعه بل في صلب انشغالات الإنسانية جمعاء. إذ هي فرصته لركوب قطار التجديد عبر مواضيع جديدة وإشكاليات جديدة بمقاربات جديدة.

ما يستعطيهِ التاريخ اليوم بلغة باتريك بوشرون هو استدعاء البنيات الممتدة في الزمن الطويل والسياقات المفسرة للمستبطن والخفي فيما جرى ويجري اليوم، الكاشفة لبيئة الاستنابات ومنحى التبلور ومسار التطور. هل سننساق مرة أخرى مع القراءات التي لا ترى من جبل الجليد سوى وجهه الظاهر، فنتحدث عن الجوائح كما لو أنها وحدها المسؤولة عما حصل ويحصل، متناسية السياق الذي جاءت فيه والواقع الهش المهترئ الذي وجدته، ولم تعمل في الواقع سوى على تعميق جراحه؟

<sup>31</sup> فرانسوا بداريدا، "الممارسة والمسؤولية التاريخية"، ترجمة بهلول شريف، مجلة ديوجين، العدد 168، دجنبر 1994، ص 3.

<sup>32</sup> فرانسوا بداريدا، مرجع سابق، ص 3-4.



كيف قُدر للبشرية أن تعيش من جديد سلوكات وممارسات حسبت أن الزمن قد طواها إلى غير رجعة؟ ليس فقط عودة أسلوب تبادل البضائع بما يقابلها نقدا على الطريقة الفينيقية في زمن كورونا، لتفادي الاحتكاك المباشر ونقل العدوى، لكن الأدهى والأشد غرابة هو عودة القرصنة وتحلل منظومة أخلاقية قيمة في مجال العلاقات الدولية؟!

في زمن اختار فيه البعض أن يتحدث عن مناعة القطيع المعبرة عن داروينية اجتماعية في لبوس مادي مفتقد لأي حس إنساني، وانتقاء في النوع البشري بإرادة البشر لتحديد من يعالج ومن يترك لمصيره، وأمام عودة المالتوسية في صيغتها الأكثر شراسة ومعادلة الربح ولو على حساب صحة الانسان، حيث الوفرة على حساب الجودة والجانب الصحي، ناهيك عن الأخطار البيئية، سقطت أقنعة النيوليبرالية وطُرح سؤال الأولوية هل للإنسان أم للاقتصاد؟ وكذا التمايز بين القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية للبضائع؟ وما أثر كل ذلك على مختلف اقتصادات العالم وتداعياتها على الفئات الأكثر هشاشة؟

هل نحن أمام نهاية للتاريخ أم أمام سقوط مدوي لنهاية التاريخ مع ظهور تباشر نهاية القطبية الأحادية؟ أي خصائص تميز هذه الجائحة عن سابقتها طبيا واجتماعيا واقتصاديا ونفسيا في زمن تَحكُّم كبريات شركات الأدوية في العالم، والرهاب الموجه إعلاميا بضخ رهيب للإشاعات وتوظيف الفيروسات في لعبة الأمم؟ ماذا عن وقع كل ما حصل على البنيات الذهنية السائدة في زمن الثورة الرقمية واستمرار التمرس خلف الهوية؟ وأي عاهات نفسية قد يحملها القاصرون المحاصرون في بيوتهم، القابعون خلف شاشات حواسيمهم زمن الحجر الصحي؟

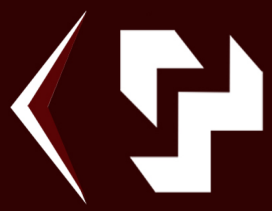
هل نحن حقا أمام محطة جديدة للتحقيب أم أمام مؤشرات تحول في طور التشكل لم تنضج شروط اكتماله بعد؟

تلك جملة أورااش، إلى جانب أخرى، يسمح توسع مجالات المؤرخ بالانخراط فيها، بانفتاح منتج ومبدع على





باقي الحقول المعرفية، مع ضرورة الخلق والابتكار في زاوية المعالجة. ولأن الظرفية استثنائية وغير مسبوقة، فالمقاربات السائدة بما فيها آخر اجتهادات التاريخ الجديد قد تحتاج بدورها إلى نَفَسٍ تجديدي مبتكر لسبر الأغوار وكشف الأسرار.



بيبليوغرافيا مساعدة:

- بداريدا فرانسوا، "الممارسة والمسؤولية التاريخية"، ترجمة بهلول شريف، مجلة ديوجين، العدد 168، دجنبر 1994.

- بوشرون باتريك، ما يستطيعه التاريخ، ترجمة جلال الحكماوي، الدار البيضاء 2018.

- بياض الطيب، الصحافة والتاريخ، إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن، منشورات دار أبي راقراق، الرباط، الطبعة الثانية، 2019.

- حبيدة محمد، المدارس التاريخية، برلين- السوربون- استراسبورغ، من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط، 2018.

- حبيدة محمد، كتابة التاريخ، قراءات وتأويلات، در أبي رراق، الرباط، 2013.

- دوس فرانسوا، التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

- ريكور بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.

- Bloch Marc, *Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien*, édition critique préparée par Etienne Bloch, Armand Colin, Paris, 1993.

- Bloch Marc, *L'étrange défaite, témoignage écrit en 1940*, Gallimard, Paris, 1990.

- Coutau-Bégarie Hervé, *Le phénomène Nouvelle Histoire, Grandeur et décadence de l'école des Annales*, Ed, economica, Paris, 1989.

# التاريخ بين الجدوى والموضوع وآليات الاشتغال



- Furet François, *Un itinéraire intellectuel, L'historien journaliste, de France-Observateur au nouvel Observateur (1958-1997)*, édition établie et préfacée par Mona Ozouf, Calmann-Lévy, Paris, 1999.